الحب الالهى فى التصوف الاسلامى

للدكتور محمد مصطفى حلمى

عرض وتحليل

للأستاذ مكرم الحامى

(إلى الذين يلتمسون نجوى السرائر ، وسلوى الضمائر ، ونور العقول ، وقوت القلوب) يهدى الدكتور محمد مصطفى حلمى رسالته عن (الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى) ثم يمضى إلى موضوع بحثه لايلوى على أولئك المكابرين فى شأن هذه الدقائق ، وكأنه يؤثر على جدالهم أن يعرض على من شاء منهم صفحة الحب الإلهى — كما هى — تدافع عن نفسها وتدعو إلى رحابها من يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وكان أول ما يعنيه فى بداية بحثه هو التفرقة بين نوعين من الحب (تمكنا فى نفوس أصحاب النفوس الزكية ، وتقسما قلوب أرباب القلوب النقية ، وانطقا ألسنة أهل الأذواق الروحية من الصوفية بروائع من النظم وبدائع من النثر) . . هما الحب الإلهى من ناحية ، والحب النبوى من ناحية أخرى ؛ فمن المحبين من يتخذ موضوع حبه من الذات الإلهية أو الحقيقة العلية) ومنهم من يتخذ موضوع حبه (من النبى محمد صلى الله عليه وسلم أو من النور المحمدى أو الحقيقة المحمدية) ، وفريق ثالث يملك عليه مشاعره وجوانحه الحبان معا .

وللصوفية فى حديثهم عن خطرات أرواحهم ، وسبحات قلوبهم ، ونجوى ضمائرهم ، أسلوبان فى التعبير ؛ أحدهما يلتزم التصريح والبيان بحيث لايخطىء فيه المتأمل وجه الله ، أو الذات الإلهية أو الحقيقة العلية أو النور المحمدى أو الحقيقة المحمدية . . وثانيهما يجنح إلى الرمز والالغاز أو الإشارة والتلويح حتى ليحار العقل فى تقصى مذاهبه ! !

ولعل مما يزيد أمر أولئك الرمزيين غموضا أنهم يصطنعون فى حديثهم عن حبهم الإلهى أو النبوى تلك الألفاظ التى يحفل بها الشعر الغزلى فى الأدبين العربى والفارسى

على السواء (فالحب والصبابة والغرام ، والعشق ، والشوق ، والهيام ، والأسى ، والجوى ، والقلى ، والشجو والحزن ، والضنى ، والبكاء ، والنواح ، والأنين ، والفراق والبعاد ، والحنين ، والقرب ، والبعد ، والوصل والصد ، والحب ، والمحب ، والمحبوبة ، والأحبة ، والواشى ، واللاحى ، واللائم ، والعازل ، وما يتصل بهذا كله من أسماء المعشوقات كليلى ، وبثينة ، وسلمى ، وعزة ، والخمر أو المدامة ، وما يتصل بها من حان وألحان ، ومن طاس وكاس ، ومن مجالس شراب وندمان ، ومن سكر ونشوة ودنان كل أولئك وكثير غيره من الألفاظ الغزلية والخمرية تجدد منبثا هنا وهناك فى روائع الشعر الصوفى الإسلامى فى الحب الإلهى والمديح النبوى) !!

وإذاء هذا المنهج فى التعبير عن الحب الإلهى اندفع قوم من المستشرقين بل ومن المسلمين عامتهم ، وخاصتهم ، إلى رمى المتصوفة بالمروق والزيغ والإلحاد حتى ليضطر بعضهم كمحيى الدين بن عربى وابن الفارض إلى الدفاع عن موقفهم تارة بشرح شعرهم وأخرى بالقاء بعض الضوء على مناهج التعبير عن الحب الإلهى ؛ وكيف يؤثر أحيانا أسلوب الإشارة أو الرمز (لما تمتاز به الإشارة من اللطافة والرقة والدقة التى تجعلها أكثر اتساعا للحقائق الروحية ، والدقائق القلبية من العبارة) وهى بعد من المادية والكثافة بحيث تعيى عن بيان هذه التجليات والاشراقات والفيوضات . وقد يؤثرها بعضهم حفاظا على الأسرار الإلهية عن الابتذال ، وضنا بها على من ليس خليقا بفهمها وتذوقها .

أما ابن عربى فيعلل انتهاج أسلوب الغزل والتشبيب فى تراث المحبين الالهيين تعليلا نفسيا طريفا ، فالنفوس — فيما يرى — أكثر استجابة وأسرع تأثرا بحديث الحب والمحبين وليس ثمة نفس إلا ولها من رصيد هذه العواطف الإنسانية الخالدة نصيب قليل أو كثير ! !

وبعد أن يستعرض الدكتور محمد مصطفى حلمى بعض مصادر التراث الصوفى — شعره ونثره — يؤكد أن هذا التراث الروحى (الذى أودعوه أذواقهم وأحوالهم وأسرارهم وأنوارهم ومكابداتهم ومجاهداتهم . هو خير المنابع التى تستقى منها الفلسفة الروحية الإسلامية الخالصة ، وما تنطوى عليه هذه الفلسفة من المعانى النفسية والميتافيزقية والخلقية والاجتماعية ، التى إذا حققها الإنسان فى صلته بربه من ناحية ، وفى صلته بأشباهه من ناحية أخرى ، فقد حقق المثل الأعلى الذى تطمح إلى تحقيقه الإنسانية بأدق معانيها وفى أسمى غاياتها ومراميها) .

ثم يعرج الدكتور حلمى على (تعريفات الحب وألوانه) عند الصوفية فهم يعرفون المحبة تارة بشرط صحتها وأخرى بالحديث عن حقيقتها ، وثالثة عن حال المحب ، وكل هذه التعريفات على اختلافها — (تظهر — كما يقول الدكتور حلمى — على أن الفكرة الرئيسية المشتركة بينها ، والمحور الذى تدور عليه ، والغرض الأسمى الذى ترمى إليه ، هو فناء الإنسان عن نفسه ، وإنكاره لذاته ، وبقاؤه فى ربه ، وإثباته لربه ، بمعنى أن يتجرد عن شهوات الحس ويتخلص من نزوات النفس ، ويقبل بكل همته على الله ، ويعرض عن كل ما سوى الله) :

وليس الطريق إلى الله ميسور العبور لكل طارق إلا أن يكون من أولى العزم والإخلاص فيأخذ نفسه بسلسلة طويلة جادة من المجاهدات والرياضات والمكابدات ، وفى الطريق إلى الله سيجتاز ألوانا من المقامات والأحوال ، فمن توبة ، إلى صبر ، إلى شكر ، إلى رجاء ، إلى خوف ، إلى زهد ، إلى توكل ، إلى رضا ، إلى محبة ! !

والمحبة سواء كانت حالا عند بعض الصوفية أو كانت مقاما عند بعضهم — فهى ذات أوجه بصفة عامة ؛ فقد تكون من وجه حب الله للانسان ، ومن وجه آخر حب الإنسان لله ، ويضيف لونا ثالثا من الحب هو حب الله لأن يعرف .. ويقول — ابن عربى — عن هذا اللون (لولا المحبة ماصح طلب شىء أبدا ، وهذا سر « فأحببت أن أعرف » فى الحديث القدسى ، ولا كانت حركة من شىء إلى شىء ، فالمحبة أصل فى باب وجود الأعيان وفى باب مراتبها ومقاماتها) .

وتبلغ المحبة ذروة شفافيتها واشراقها حين تبرأ من كل عرض أو غرض ، من أية رغبة أو رهبة ، أى حين يكون الحب خالصا لوجه الله ، لا خوفا من عذابه ولا طمعا فى ثوابه ، وإلى هذه القمة انتهت رابعة وابن الفارض وأمثالها من المحبين .

ويطوف بنا الدكتور حلمى فى جولة سريعة على بعض قمم المحبين فلا يقف طويلا عند ما تحفل به من قيم فنية وأدبية بقدر ما يقف عند ما تشعه من سمو انسانى وسنا قدسى ولمحات مضيئة قادرة على الكشف عن بعض اسرار التصوف الاسلامى بصفة عامة والحب الالهى فيه بصفة خاصة .

ويعرض الدكتور حلمى بعد ذلك لفكرة الجمال المطلق والحسن المقيد عند الصوفية فالمحب فى عرفهم إن هو إلا عارف بربه بقدر ما هو محب له . . والمعرفة عند الغزالى . . هى معرفة الحضرة الربوبية المحيطة بكل الموجودات . . ويقول أيضا أن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله

تعالى . ويعرف الله استدلالا بفعله على صفته ، وبصفته على اسمه ، وباسمه على ذاته .. وقد يعرف الله شهودا وعيانا وتلك هى أرقى درجات المعرفة . . . وكذلك الشأن فى الحب فبين الحب الإلهى المطلق والحسن الكونى المعين يترقرق الحب الإلهى على تفاوت فى المستويات ؛ فمن حب للأفعال الإلهية ، إلى حب الصفات الإلهية وتلك بدورها هى أرقى درجات الحب .

فإذا استغرق الصوفى هذا الجمال المطلق أضاء يقينه بالمعارف اللدنية فيرى ما لا عين رأت ويسمع مالا أذن سمعت وينعم بما لم يخطر على قلب بشر ! !

ثم يمضى الدكتور حلمى فى عرض تاريخى ومذهبى للحب الإلهى فى التصوف الإسلامى منذ بدأ بكاء وتضرعا وخشية إلى أن انتهى أنسا وشوقا ومحبة ! ! فبعد أن كان عون بن عبد الله والحسن البصرى وأمثالهما يهتفون من الأعماق (ويحى . . أو ويلى) وقد أمضهم الشعور بالإثم ، وأفزعهم تصور العذاب إذا برواد آخرين من الزهاد والخشاع والمتبتلين يضربون على أوتار جديدة فى القلب الإنسانى فتنساب ألحانها رقراقة هادئة مطمئنة . . إنها ألحان الأنس والرضا والنشوة . . ألحان النفس المطمئنة ! ! وهل هناك أجمل من مناجاة رابعة لربها (أحبك حبين) ! وهل تتصور حديثا بين حبيبين أرق وأبسط وأدق من حديث ذى النون حين يقول لله (أنت لى منى) ! وهل رأيت مكانا أسمى وأعز من المكان الذى ينزل فيه الحلاج محبوبه فيسر إلى الله فى همس عابد (أنت بين الشغاف والقلب) . . وهل رأيت اطمئنانا إلى مكانة المحب لدى حبيبه يبلغ اطمئنان ابن الفارض حتى ليقول فى شىء يشبه الزهو (يحشر العاشقون تحت لوائى) ! وهل رأيت عمقا وإحاطة على الصورة التى يدين فيها ابن عربى بدين الحب !!! .

وبعد فقد حدثنى الصديق الأستاذ طه عبد الباقى سرور أن الدكتور محمد مصطفى حلمى من القلة المعاصرة المختلقة بكثير من أخلاق الصوفية ، وحين صحبته ساعات فى رحلته الممتعة فى رياض (الحب الالهى فى التصوف الاسلامى) احسست أنا الآخر روحا حارا مؤمنا يترقرق فى كلماته ولمحاته وخواطره ، حتى لأحسب أن أشد الناس انكارا المثل هذه الدقائق والمعانى واللفتات الروحية أو الصوفية — لا يملكون — وقد بدأوا قراءة هذه الرسالة — إلا أن يمضوا فى قراءتها حتى آخر كلماتها فى تقدير ربما انتهى بكثير منهم إلى الإيمان بهذه الالوان الفريدة من العواطف وهذه الصور المجنحة من التعبير .